

الفصل الثاني

مهمة النقد ووظيفته

ويتضح لنا مما تقدم أن النقد الصحيح هو الذى يتصدى لعملية الخلق فى الإنتاج الفنى ، فيوضح ماهيتها ، ويفسر لنا قيمتها ، ثم يتعرض للغايات التى من أجلها وجد هذا الإنتاج . ولا تقتصر مهمة النقد على هذه النواحي بل إن وظيفته أيضاً فى نظر إليوت هى تبيان مواطن النقص أو الضعف فى العمل الفنى والإشادة بمواطن الحسن والقوة فيه أيضاً . ولا يهمنى فى هذا المضمار الإتيان بالتعاريف والمفاهيم العامة . فهذه لا توضح الإنتاج الذى نحن بصدده فى قليل أو كثير ، إذ أنها لا تخدم وظيفة النقد . من هنا يعيب إليوت على بعض النقاد إسبابهم فى سرد النظريات النقدية وتماديهم فى شرح الأسس العامة ، وهذا مما يؤدي بدوره إلى إهمال العمل الفنى وبالتالي تضيق فرصة تقييمه ووضعه فى المكانة اللائقة به .

إن منهاج النقد منهاج عملى أكثر منه نظرى . ووظيفته لا تنأتى إلا بالسبل التطبيقية القائمة على الخبرة والمران الطويل فى مجال الكتابة الجيدة . وهنا يتعرض إليوت للاتجاه العملى الذى نادى به الدكتور رتشاردز مؤسس المدرسة السيكولوجية التحليلية للنقد فى كبريدج . وفحوى هذا الاتجاه هو أن الإنتاج الفنى الجيد يترك فى نفس القارئ أثراً حميداً من شأنه جلب المتعة الفنية والشعور بالراحة والرضى كنتيجة لحالة التوازن التى يحس بها القارئ بعد استمتاعه بالحقيقى بالعمل الفنى ، وهو توازن سيكولوجى منصب على الانفعالات والدوافع التى كثيراً ما تتصارع وتتطاحن بعضها مع البعض الآخر . وغالباً يصحب هذا التوازن النفسى توازن عقلى ، فشمول الصحة النفسية عنصر هام وركن جوهرى فى نظرية

رتشاردز السيكولوجية . ولعل منهاجه العلمى هو الذى أعجب به إليوت ، بالإضافة إلى أسلوبه العملى فى النقد وطرحه لمجموعة من المقاصد على طلبته بجامعة كمبريدج لنقدتها ثم خدروجه من هذه الانطباعات المتضمنة فى كتابه عن « النقد العملى »^(١) بنتائج قيمة أفادت النقد الحديث إما إفادة ، ومؤداها هو أن النزوات الشخصية كثيراً ما تعرقل عملية النقد الصحيح وتطبخ بكيان العمل الفنى . ذلك أنها تزج به داخل إطار ضيق مغلق تحلده الميول الذاتية والاتجاهات الفردية . وهذه النظرة الضيقة تسوقنا خارج طبيعة العمل الفنى الذى ينظر إليه رتشاردز على أنه مجموعة من التفاعلات والتكبيات المعقدة التى تحتاج من الناقد أو القارئ إحساساً عميقاً ووعياً ودراية وحدقاً قبل الإقدام على عملية التقييم . وهذه الأمور كلها غالباً لا تتوفر عند الكثيرين . ولهذا جاء تقديمهم صدى لما تجيش به صدورهم مما أبعدهم عن محيط الموضوعية . ولهذا كانت فائدته محدودة للغاية إذ أنها مقصورة على بعض آراء شخصية لا تغنى ولا تسمن من جوع .

إن تربية الذوق الفنى السليم وهى إحدى الوظائف الهامة للنقد المتكامل عند إليوت لا تتأتى من وراء هذه النزوات . إذ أن هذه الحساسية تحيا فى رحاب الموضوعية ، وتتغذى على منابعها وأصولها الكلاسيكية . كما تستند إلى نظرنا الرحبة إلى التقاليد . فهى التى تقويها وتدعمها وتشد من أزرها حينما نخطو بكلياننا إلى المحيط الخضم للفنون والآداب . فتنامس الماضى وقد تردد صداه فى حاضرنا وواقع حياتنا الراهنة . ونشق طريقنا وسط النصوص والنماذج المعقدة ، لنخرج منها بتراث غنى ملىء بالحوالات الفكرية بقدر ما يشع من كل جنباته بالانفعالات والعواطف الجياشة .

إن هذا البراء الفكرى والوجدانى هو ما أشاد به إليوت إذ اعتبره ركناً جوهرياً فى عمليات الخلق والتقييم أو الإبداع والنقد . وهذه العمليات بوجه عام لا يمكن

التعبير عنها في إصالة إلا إذا صيغت في قالب موضوعي يرتكز على التعادل التام بين الحقائق الخارجية والوجدان ، وهذا هو ما أطلق عليه إليوت اسم المعادل الموضوعي^(١) الذي يمكن بواسطته تحقيق موضوعية العمل الفني ، أى أنه بمعنى آخر غير نابع من المشاعر والأحاسيس المباشرة . ويعرف إليوت هذه الناحية بقوله :

« إن السبيل الوحيد للتعبير عن الوجدان في الفن هو إيجاد معادل موضوعي ؛ أو بعبارة أخرى ، إيجاد مجموعة من الأشياء ، أو موقف أو سلسلة من الأحداث لتصبح قاعدة لهذا الوجدان بنوع خاص ؛ حتى إذا ما اكتملت الحقائق الخارجية التي لا بد وأن تنتهي إلى خبرة حسية ، تحقق الوجدان المراد إنارته »^(٢).

هذا هو التعادل بين الموضوع والإحساس أو بين الحقائق والوجدان ، وهو ما وجدته إليوت ناقصاً في مسرحية « هاملت » لوليم شكسبير . إذ تقضى الحتمية الفنية بالتعادل التام بين هاتين الناحيتين ، وهو ما قصر عنه شكسبير في هذه المسرحية دون سواها . فلقد سيطرت على هاملت الشاب عدة انفعالات كان من الصعب على شكسبير الإفصاح عنها إذ تنوع الحقائق بحملها ، وهذا مرده إلى طبيعة الحكمة الفنية لهذه المسرحية المعقدة .

ومن الجدير بالذكر أن غالبية النقاد قد اتخذوا هذه النظرية أساساً لتقديم منذ ظهورها في مقال لإليوت عن « هاملت » سنة ١٩١٩ حتى يومنا هذا ، فكانت بمثابة النبراس الذي ينقدون على هديه الأعمال الفنية العظيمة . كما أنها احتلت تدرجياً مكان الصدارة في تقييم روائع الأدب ، مع أن إليوت لم يهدف

“The Objective Correlative”.

(١)

“The only way of expressing emotion in the form of art is by finding

(٢)

an ‘objective correlative’; in other words, a set of objects, a situation, a chain of events which shall be the formula of that particular emotion; such that when the external facts, which must terminate in sensory experience, are given, the emotion is immediately evoked.”

T.S. Eliot, “Hamlet”, *Selected Essays.*, ipid, b. 145.

يوماً ما أن يكون لهذه النظرية ذلك الصدى العميق في محيط النقد الأدبي ، فلقد ذكرها عرضاً في مجرى حديثه عن مسرحية شكسبير الخالدة .

وعلى أية حال فلقد تبلورت مهمة الناقد على ضوء هذه النظرية وهي انتقاء الجيد من التراث الذى تتحقق فيه العوامل المألوفة . ولقد لعبت الخبرات الخارجية في تفاعلها مع الإحساسات المرهفة دوراً كبيراً في إعادة تقييم التراث الماضى . فتوجهت الأنظار نحو الأصالة الفكرية القائمة على مثل هذه التعادلية الموضوعية ، وأقيمت الموازنات وعقدت المقارنات بين النصوص قديمها وحديثها ، فبرزت خباياها . وتلألأت محاسنها بعد أن أدرك القوم السبل القوية لفهم ومعرفة ما يقرأون مما أنتجته قرائح الماضى القريب والبعيد .

وأعقب هذه المقارنات قيام حركة تصنيفية تهدف إلى وضع الخبرات المتشابهة في صعيد واحد حتى يسهل على القارئ الإلمام بها في عجالة إن كان يهدف إلى النظرة الجشتالتية (أو الكلية) السريعة . وبهذا ظهر التراث الماضى في ثوب جديد بعد أن سلطت عليه أضواء التعادلية والموضوعية والتقليدية من شتى الجوانب . ولم ينسأ بريق هذه الأضواء ما نحس به من متعة فنية وقد امتزجت تدريجياً بتفهم شامل للعمل الفنى من كل جوانبه وبخاصة الناحيتين الفكرية والعاطفية .

والنتيجة الطبيعية لكل ما تقدم هو ظهور أنماط فنية عديدة لكل منها طابعها الخاص الذى يختلف عما عداها . وقد انعكست هذه الأنماط على ميدان النقد فتأثر بها بقدر ما أثرت فيه . وإزاء هذا التبادل استفاد النقد فوائد لا تقدر ، إذ اتسع محيطه . وعمق مداه . فتشعبت تياراته التى اختلطت بالموجات الفنية والفلسفية الحديثة . وعلى مر الأيام توارى الزبد الذى ذهب جفاء ، فاضمحلّت الآراء التى تم عن أفق ذاتى ضيق بعد أن أفسحت المجال للنظرة الموضوعية الرحبة التى تفاعلت مع تيارات الفكر الأوروبى الحديث . وهذه النظرة الأخيرة هى التى تمثل خلاصة النقد المعاصر ، فلم يعد بمنأى عن الحياة الاجتماعية والفكرية

بل جزءاً من صلبها وعموداً من أعمدها الراسخة التي تركز عليها صرح الحضارة .
 وإلى عهد قريب اقتصر النقد الأدبي على تبيان مواطن الضعف والقوة في
 التعبير . وجلاء العبارة أو غموضها ، ودقتها النحوية ، ومحسناتها اللفظية . واختيار
 كلماتها . وغير ذلك من الأمور التي تتصل بالصنعة اللفظية . لكنه بعد تبلور
 نظريات فرويد السيكولوجية خطا النقد خطوات واسعة في سبيل البحث عن
 المؤثرات اللاشعورية إزاء العمل الفني . ويقول إليوت في هذا الصدد : « إن
 الدراسات السيكولوجية قد فتحت في النقد الحديث آفاقاً لم يكن له عهد بها من
 قبل . » ويتضح لنا ذلك في المنهاج السيكولوجي الذي اتبعه الدكتور رتشاردز
 والذي سبق الإشارة إليه .